

النظرية الوظيفية البنائية هي أكثر المداخل النظرية الكلية المبكرة في تاريخ العلوم الاجتماعية التي خضع فيها علم الاجتماع، كغيره من العلوم ( وربما أكثر من غيره من العلوم ) لسلطة الوضعية العضوية ، إلى تفسير الحياة الاجتماعية أيضا ، ترجع الاهتمامات المركزية للوظيفية البنائية إلى الانشغالات المركزية لمفكري القرن التاسع عشر بإشكالية مزدوجة : 20 هل يمكن الجمع ، بين مشكلة التطور التغير من جهة ، من جهة أخرى ؟ هل يمكن الجمع ، وفكرة الاعتماد المتبادل الوحدة ، من جهة أخرى ؟ ولحسن حظهم ، أو أن يتحملوا الانتظار طويلا ، فهم يرون مشكلات التغير الاجتماعي في مجتمعاتهم المتغيرة بسرعة وعمق ، لقد قدمت لهم البيولوجيا والسيكولوجيا والأنثروبولوجيا ( أو اتحاد هذه العلوم معا ) الإجابات التي يبحثون عنها . المؤرخ القدير للنظرية الاجتماعية ، إلى التأكيد بأن الأب الحقيقي للوظيفية هي المدرسة العضوية الوضعية ( مارتنديل ، بوصفها نظرية تفسيرية ومنهجاً بحثياً ، إلى كثير من الأسس المعرفية للمدرسة الوضعية التي يمثلها في علم الاجتماع اب علم الاجتماع الفرنسي ، ودوركايم ( 1858-1917 ) مؤسس علم الاجتماع الفرنسي . قدمت الوضعية إمكانية رسم خريطة معرفية للعالم الطبيعي والاجتماعي ) ، بل وقدمت إمكانية تقدم المجتمعات نحو نظام عالمي إنساني دنيوي جديد مبني على قوانين فكرية وعلمية وعقلية ، ليحل محل النظام ( الديني العسكري القديم المنهار . وتحالفت اهتمامات الوضعية العلمية مع اهتمامات المدرسة العضوية التطورية التي يمثلها في علم الاجتماع هربرت سبنسر ( 1820-1903 ) ، مؤسس علم الاجتماع البريطاني على أسس بيولوجية تطورية ، فتذهب العضوية إلى تأكيد الثبات النسبي للتكوينات والتنظيمات والترتيبات للكائن العضوي الحي ، وثبات مماثل للتنظيمات والعلاقات والتبادلات بين الأجزاء ، ومن البيولوجيا أخذ . سبنسر فكرة التطورية الاجتماعية مقترنة بالمماثلات العضوية ، ومنها نظر إلى المجتمع بوصفه تنظيمًا للميكانيزمات . كما أخذ منها الأساس الذي استخدمه في تصنيف المجتمعات ومراحل تطورها . أخذ دوركايم فكرة البناء الاجتماعي ، وفكرة التكامل الاجتماعي " ، فاستطاع بهما دراسة المجتمع كوحدة ( حية ) واحدة ، خاصة علم النفس في نظريته الجشطالتية ( Gestalt ) أو النظرة الكلية المترابطة . ولا تجد معنى لها خارج هذا الإطار الكلي الجامع . للإنسان وقدراته واستجاباته للقوى الضاغطة لدوافعه وحوافزه ( الشعورية واللاشعورية التي تتحكم في سلوكياته ، على وهو ، يوعي أو بغير وعي ، اسير حاجاته البيولوجية والاجتماعية المتشابكة الضاغطة . كما وجد هذا المنظور البنائي الوظيفي دعما إضافيا في الدراسات والتحليلات الميدانية لباحثي الأنثروبولوجيا البريطانيون المبكرين المؤثرين مثل : رادكليف براون ، ومالينوفسكي في أجيال لاحقة من الباحثين في علم الإنسان الثقافي والاجتماعي في المجتمعات المحلية البسيطة ، مهما كان حجمه وتركيبه ، لاستقرار النسق واستمراره . والمعاملات الدنيوية ، والطقوس والشعائر في الولادة والزواج والوفاة ، والتعاملات مع الطبيعة . ويشف تتبع هذه الجذور المعرفية للبيئة الوظيفية عن ملاحظتين ( مارتنديل ، وقد شهدت خمسينيات وستينيات القرن العشرين صعود اقياسيا للمنظور الوظيفي . ويلاحظ بلتون وزملاؤه ) ( 1987 : 568 ) أنه بتطور علم الاجتماع في النصف الأول من القرن العشرين ، أصبحت الاستخدامات والتوجيهات العامة لدوركايم هي المنظور المهيمن على علم الاجتماع الأمريكي . ومنذ أن هيمن الأمريكيون على المشهد السوسيولوجي لفترة ، أحد أشهر المؤمنين بها والمدافعين عنها ، أن علينا أن لاننظر إلى الوظيفية كمنظور منفصل أو منعزل في نظرية علم الاجتماع ؛ لأن علم الاجتماع كله هو علم وظيفي خالص . ويختلف الأنثروبولوجيون والسوسولوجيون الذين يتبنون الاتجاه الوظيفي في نوعية النظم أو الأنساق التي يهتمون بملاحظتها وتحليلها ؛ فمنهم من يركز على تحليل أنساق صغيرة ( كالجماعات والمجموعات ، والمجتمعات المحلية البسيطة أو البدائية ) . وانخرط به مالينوفسكي ورادكليف براون . ولكن جميع الوظيفيين يشتركون ، كما يلاحظ سمير نعيم ، أي أنهم جميعا مثاليون ، ( 1985 : 191 ) . ومجمل القول : إن النظرية الوظيفية – البنائية نظرية علمية مبكرة في علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى ) .